التناص النقدي في الأدب

المدرس المساعد : حنان عبد الهادي أمين
hananabd@uomustansiriyah.edu.iq

يعد التناص من أهمِّ المُصطلحات الغربية الحديثة التي دخلت على الأدب العربي الحديث في مطلعِ السِّتينياتِ وظهر بواكيره الأولى عند كل من اللسانين والشكلانيين الروس، والبنيويين الأوربين، فقد أقام سوسير مؤسس علم اللغة "سيميوطيقته" على مفهوم العلامة وتأثرت بها (كرستيفا) في مفهومها للنص وأشارت أنه مجرد خطاب أو قول؛ وربط باختين التناص بـ(الحوارية النصية) بحيث شكل البعد التناصي جسرا بين (المتكلم والمستمع، واللفظ)، فكل كلمة لا قيمة لها الا بالتوظيف الحواري، ثم جاءت كرستيفا وثبتت مفهوم التناص وهو يناقش قضية الحفر في مرجعيات النصوص والكشف عن منابع الرؤى التصويرية الموروثة أو المكتسبة وآلية الترجيع هذه ألصق بآلية التأصيل التي تحاول ترجيع كل شيء إلى أصله أو ما يقاربه من منابع وأنساب.
وقد وصفت جوليا كرستيفيا التناص بأنَّه "كلَّ نصٍّ هو عبارة عن لوحةٍ فُسيفَسَائيةٍ من الاقتباساتِ، وكلّ نصٍّ هوَ تَشرَّبٌ وتحويلٌ إلى نصوصٍ أُخرى ".
وأن انطلاقية كرستيفا منذ الستينات نحو بناء معلم دلالي(سيمولوجي) متكامل في عدة أبحاث صدرت لها في مجلتي (تيل_كيل، وكريتك) وأعيد نشرها في كتابيها سيميوتيك ، ونص الرواية، وكان كتابها (علم النص) من أنضج كتبها المتقدمة في مسيرة اكتمال منجزها النقدي.
فهذه الانطلاقية استمدت من منابع عدة أو جذور وهي:
-المنبع الفلسفي : كانت ثمة اشارات لكرستيفيا بينت تأثرها بفلسفة أرسطو، وافلاطون بتأثيرها بمفهوم المحاكاة، وتأثرت بفلسفة كانط الذي جمع في فلسفته بين العقلي والتجريبي، وكذلك تأثرت بهيجل، وتأثرت بفلسفة هوسرل ودريدا في التحليلات التعبيرية اللغوية
-المنبع النفسي : تأثرت بمقولات اللاوعي ، والتصويرية الأدبية عند فرويد .
- المنبع الأدبي: تأثرها بأدبية ميخائيل باختين الروائية _الحوارية_ وتأثرها بأدبية مارك أنجينيو _الأزدواجية_ فضلاً عن تأثرها بالشكلانية الروسية.
- المنبع اللساني: كان اللساني الأساسي الذي استندت عليه كرستيفيا في طروحاتها هو العالم (دو سوسير) العالم الذي احدث انقلاب لغوي معاصر، بنت على أفكاره سيميائية الدلالة والتي انتجت منه تناص التحليل والتصحيفية .
فكانت هذه المنابع أو الجذور هي الأساس التكويني لمفهوم التناص أو التعالق النصي النظرية النقدية التي اكتملت شكلا ومضمونا على يديها في ستينات القرن العشرين وبفضل هذه الجذور ظهرت لها عدة مصطلحات ك (التناص، والميتناص، والإيديولوجيم، فسيفساء النصوص والنفي الكلي وغيرها).
أمَّا رولان بارت، فهوَ الآخر قدَّمَ دوراً مهمَّاً بارزاً وفعَّالاً في استراتيجية مفهوم التناصِّ لا يقلُّ أهميةً عن الدور الكبير الذي قامت به الناقدة جوليا كرستيفيا، إذ انطلق في أبحاثه وتصوراته ورؤاه النقدية من منجزاتها ومشاريعها النقدية لمفهوم التناصِّ، فهو ينظر إلى ذلك من خلال نظريةِ النصِّ، فقال بأنَّ "كلَّ نَصٍّ ليسَ إلَّا نَسيجاً جديداً من استشهاداتٍ سَابقةٍ"، أي أنَّ هذا النسيج يسترفد خيوطه النقدية وتحولات تخلُّقه التشكُّلي من البِنية الأصلية الأُمِّ، حتى يستقلَّ بوجوده القائم تناصَّاً.
فَالنصُّ يُعدُّ بمنزلة الابنِ الشَّرعي الذي يَستمدُّ خصوصيتهُ الثقافية واستقلاله الذاتي من رَحْمِ آبائه النصوص الأصلية السابقة دونَ أنْ يفقدَ ميزاته اللُّغوية والجمالية؛ كونه نَصَّاً قائماً بذاته.
أمَّا المُفكّر والناقد الروسي ميخائيل باختين، فينظر إلى التَّناصِّ نظرةَ تواصلٍ في ضوء العَلاقة التي تحدث بين المُرسل والمُتلقِّي، فيُعرِّفُ التناصَّ بأنَّهُ "عبارةٌ عن وسيلةِ تواصلٍ لا يمكن أنْ يحصل القصد من أيِّ خطابٍ لُغويٍ بدونه، إذ لا يمكن أنْ يكون هناكَ مرسل بغير مُتلقٍّ مُستوعبٍ مُدركٍ لمراميهِ".إذ أنَّ باختين في التناصِّ يؤكّد العَلاقة المتينة المتبادلة طرفياً بين المرسل المُبدع لخطابه رسالةً، والمتلقّي الحاذق الواعي لتجلّيات رسالة الخطاب الشعري التي تمَّت بهذه التقنية أو هذه الوسيلة الجمالية الفنيَّة.

وَتَأسيساً على ما تقدَّم حول نظرية النَّصّ وتداخله النصّي الذي يُفقده خصوصيَّته الاستقلالية، فإنَّ ميزة هذا التفاعل التداخلي الذي يتعالق فيه سياق نصّي ثقافي جديد بسياقٍ نصّي ثقافي آخر، جاء لغرضٍ ثقافي من أجل ترصينِ مَفاهيم الثقافة الحديثة، وتعميق قيمها الراهنة في الوسط الثقافي، والعمل بِجديَّةٍ على التأصيل الفكري لظاهرة التَّعالقِ الثقافيِ النَّصيِّ الراهن في حضوره الثقافي مع ماضيه الضارب؛ لأنَّ حاضر الأزمة هو استطالة لماضيها.

وظيفة التناص:

والتناصُّ كونه تقنيةً استراتيجيةً أدبيةً وثقافيةً وفكريةً فاعلةً تُضيء سيمياء النَّصّ اللَّاحق، وتُنيرُ فضاءاته المتعدِّدة، لا يقتصرُ عملُها التَّقني على إظهار هيمناتِ النَّصّ، وبثِّ محمولاته الثقافية والمعرفية فحسب، بل يُحقِّقُ التناصُّ للنَّصّ وظيفةً جماليَّةً وفنيَّةً أُخرى تجعل العمل الأدبي مُؤثِّراً مَرغوباً .

أقسام التناص:

أ- الَمنَاصَّةُ: ونعني بها البنيةَ النَّصيَّة التي تشترك مع بنية نصٍّ أصليةٍ في مَقامٍ وَسِياقٍ مُعينينِ لا ثالث لهما .

ب- التَّناصُّ: وهو عملية التَّضمينِ النَّصّي الذي يَنطلق من مفهوم العلاقتينِ(النَّقديةِ والإيحائيةِ) بين المِيتا نصٍّ والتَّعلُّق النَّصّي اللَّذينِ ينتميانِ إلى مفهوم (التفاعل النَّصي)

ج- المِيتانَصيَّةُ: يأخذ بُعداً نقديَّاً مَحضَاً في علاقته التفاعلية التي يُقيمها ببنيةٍ نصيَّةٍ جديدةٍ طارئةٍ مع بنيةٍ نَصيَّةٍ قَديمةٍ أصلٍ لإحداث تقنيَّة التَّناصّ.

ت. (التَّناصّ العامِ)، وهو ما أشار إليه الكثير من النُّقاد العرب ومنهم الدكتور أحمد الزغبي في كتابه (التَّناصُّ نظرياً وتطبيقياً)، ويعني به علاقةَ نصّ الكاتبِ بنصوصٍ غيرهِ من الكُتَّاب الآخرينَ.

والتناصُّ الخاصُّ: وهو علاقة نصوص الكاتب المبدع نفسه بعضها ببعضها الأخر. ويمكن أن نُسمِّيه تناصَّاً داخلياً محليَّاً من بنية مقامه النَّصية، وليسَ تناصاً خَارجياً آخر من بنيةِ مقام غيرهِ النصيِّة.

ث. -التناص (التَّاريخيُّ): وهو التوظيف من الأحداث واستحضار الرصيد التاريخي، واستثمار الرصيد العاطفي للنصّ الأوَّل من أجل قراءةٍ تفاعليَّةٍ نَصيِّةٍ بينَ المُرسلِ والمرسلِ إليه.

د. التَّناصُّ الدِّينيُّ: وهو الذي يقتبس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية: مثل قول الشاعر أمل دنقل في قصيدته (إرم العماد) يقول:

" أبحثُ في مدينتي يا إرم العماد ...
يا إرم العمادِ يا بلد الأوغاد والأمجادِ...
ردي إلي صفحةَ الكِتاب...."

والناظر في سياق القصيدة يجد الشاعر يبحث عن مدينته فلا يجدها، فقد هجرت ، ولم يبق فيها غير صورة الدم المنساب والاغتراب فيتذكر تلك اللعنة الربانية التي حققت على مدينة (إرم) والتي ذكرها عز وجل في كتابه المجيد بقوله تعالى { ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذاتِ العماد} فهنا الشاعر وظف النص المقدس الذي جعل من نصه نصاً حجاجيا بالغ الأقناع للمتلقي فنصه أصبح متوالية نصية لنصوصٍ سابقةٍ.

-ومن أهم آليات/ قوانين التناص :

هي: (التداعي، التمطيط، الاستدعاء، الاجترار ، الإيجاز، الحوار)

_ وأما أشهر من أشتغل على التناص بعد جوليا كرستيفا هم (رولان بارت، جيرار جينيت، ريفاتير وشعريته، جان كوهن، وغيرهم...)

ومن أشهر النقاد العرب الذين اشتغلوا على هذه النظرية النقدية (محمد بنيس، احمد الزعبي، عبد الله الغذامي، محمد مفتاح، وغيرهم)

الخاتمة: بعد أن وقفنا على مفهوم مهم من مفاهيم الخطاب النقدي الأدبي الحديثة وتابعنا مراحل نشأته وتطوره ونضجه؛ لاحظنا أن التناص جاء فكرة نقدية لفكر نقدي سابق قوامه مبادئ المنهج البنيوي وتطلعاته التحليلية ، فضلاً عن كونه القى الضوء على المتلقي وبرز دوره، وحقق التناص عبر اشكالية التداخل مع النصوص السابقة له واستثمار الأرث الثقافي كشف عن الوعي الثقافي لهذا الأديب أو ذاك الشاعر وبين ما له وما عليه، وفق مستويات التوظيف لديهم.